

الفصل الثانى

شعر حافظ إبراهيم السياسى

شهد عصر حافظ إبراهيم العديد من كبار الشعراء أمثال البارودى وشوقى واسماعيل صبرى وغيرهم ومع ذلك فان ميزة حافظ الكبرى أن شعره تبلورت فيه آمال أمته، وتألفت الروح الوطنية فى كلماته فكانت الأمة تشكو من الاحتلال ومن فوضى الأخلاق وكان زعماء الوطنية والإصلاح الاجتماعى يلهبون حماسته، وكان حافظ يجمع كل ذلك فى نفسه وكان فى شعره يقف مساندا للصحافة الوطنية وقادة الرأى السياسيين والاجتماعيين يجلس فى مجالسهم ويغذى عواطفه من عواطفهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا ملتها بفعل فى النفوس ما لا تفعله الخطب والمقالات، فكان حافظ شاعر الوطنية وشاعر الشعب وشاعر السياسة والاجتماع ولم يجاريه أحد فى ذلك من شعراء عصره خاصة وأن حبه للوطن ملك عليه شغاف قلبه وقد عبر عن ذلك بقوله:

متى أرى النيل لا تحلو موارده لغير مرتّهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت جاءت جفونى لها باللولؤ الرطب
كانى عند ذكرى ما ألم بها قرم تردد بين الموت والهرب
لذلك فإنه كثيرا ما يتضمن شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا لما كان من تداخل السياسة بالمجتمع، إذ كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس. لذلك فإننا نجد فى شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا، وفى اجتماعياته شعرا سياسيا.

وباستعراض شعر حافظ السياسى نقف على ألوان مختلفة من القصائد، ولعل أهمها ما يتعرض فيه للاحتلال وموقف الإنجليز من مصر والسودان، فمصر بلد محتل، يسيطر المعتمد البريطانى على كافة أموره، كما سيطرت إنجلترا على السودان ومقدراته.

وحافظ كشاعر عاشق لمصر ينطق بلسانها وعواطفها، ويتجاوب مع أحاسيسها، تتدفق هذه الأحاسيس الوطنية فى قلبه فينتج عنها شعرا. لقد عشق حافظ مصر عشقا ملك عليه عاطفته ووجدانه حتى أن وطنياته وسياساته ظلت بمثابة الدعامة التى تستند إليها قدراته باعتباره شاعرا مجاهدا ومدافعا عن وطنه.

كم ذا يكابد عاشق ويلقى فى حب مصر كثيرة العشاق
بنى لأحمل فى هواك صباية يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفى عليك متى أراك طليقة يحمى كريم حماك شعب راق
ولقد ساقه هذا الحب إلى أن يجعل من نفسه شاعر أمته الوطنى
والمؤثر البالغ الأثر فى إلهاب شعورها وإذكاء حماسها. وأحد عوامل تكوين الحركة الوطنية المصرية حيث اندمج باحساسها وأخرج شعره المعبر عن هذه المعانى كلها فيتغزل بمصر ويتغنى بها فيقول:

وما أنا والغرام وشاب رأسى	وغال شبابى الخطب الجسام
لعمرك ما أرقى لغير مصر	وما لى دونها أمل يرام
ذكرت جلالها أيام كانت	تصول بها الفراغة العظام
وأيام الرجال بها رجال	وأيام الزمان لها غلام
فاقلق مضجعى ما بات فيها	وبانت مصر فيه فهل ألام؟

ولم يشأ حافظ أن يكون شعره فى وطنه طبلأ أجوف، وإنما اتخذ ما يحدث من أحداث فى وطنه أساسا لدعوته فيختار منه موضوعا لشعره.

لقد بدأ حافظ هجومه على الإنجليز منذ بدايات حياته الأولى أثناء عمله ضابطا فى السودان بعد أن عرف سوء نيتهم ، وأعرب عن اليأس فى جلأئهم عن وادى النيل قال:

أرى مصر والسودان والهند واحدا

بها (اللورد) و (الفيكنت) يستبقان

وأكبر ظنى أن يوم جلأئهم

ويوم نشور الخلق مقترنان

وهذه القصيدة تعبر بوضوح عن فهم حافظ لمشكلة الاحتلال فى مصر. لقد ذهب حافظ إلى السودان أثناء حملة كتشنر ثم طرد من الجيش، بعد اشتراكه فى مؤامرة ضد الإنجليز فجاء به الإنجليز إلى مصر وطلبوا محاكمته وإنزال العقاب به، وصدر ضده حكم الإعدام ثم خفف الحكم بعزله ثم أحيل إلى الاستيداع.

وخلال ذلك كانت فى نفسه شكوى دائمة من الاحتلال وكان شعره سجلا للأحداث، يسجلها بدماء قلبه وأجزاء من روحه ويصوغ فيها أدبا يستحث به النفوس ويدفع إلى النهضة ، وهذه القصيدة تعبر عن شكوى مصر والمصريين من الاحتلال:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان أصبح المصرى حرا متعما
أعد عهد (اسماعيل) جلدا وسخرة فإن رأيت المن أنكى وآلما

عملتم على عز الجماد وذلنا فأغليتم طينا وأرخصتم دما
إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبثا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهمما
فلا تحسبوا في وفرة المال - لم تَفِدْ متاعا ولم تعصم من الفقر - مغنما
فإن كثير المال - والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

وإلى جانب ذلك نجده يشبع شعبه لوما وتقريبا جارحا وينفث في لومه
وتقريعه ثورته المكيوتة ضد الإنجليز، فيقول:

أمة قد فت في ساعدها

بغضها الأهل وحب الغربا

وفى قصيدة أخرى يقول:

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو في ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب
ثم هو ينتهز كل فرصة ليودعها شعره الوطني فهو يشبه الليل وطوله
بعهد الاحتلال، البغيض فيقول:

وليل كمطل القوم كابدت طوله وأيقنت أنى لا محالة صاحبه
وتتجمع الثورة على ظلم الإنجليز في نفس حافظ فيسير في ركاب
مصطفى كامل ويتقدم بقصائده إلى صحيفة اللواء فتتشرها وسط الإعجاب
والحماس وحافظ بذلك ينتهز الأحداث ويتخذ منها مادة لهجومه ودفاعه .

وتقع حادثة "دنشواى" فيشن الغارة على الإنجليز فيلهب الشعور ، ويذكر
الحماس ويستثير الدموع:

أيهما القائمون بالأمر فينا	هل نسيتم ولاعنا والوداد
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً	وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا اعوزتكم ذات طوق	بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء	لم تغادر أطواقنا الأجيادا
لا تظنوا بنا العقوق ولكن	أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمة بقتيل	صادت الشمس نفسه حين صادا

وقال يصف الحادثة وفضائع المحاكمة والتفويض فيقول:

جاء جهالنا بأمر وجئتم	ضعف ضعفيه قسوة واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو	أقصاها أردتم أم كيادا ؟
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو	أنفوسا أصبتم أم جمادا؟
ليت شعري ألك (محكمة التفتيش)	عادت أم عهد نيرون عادا؟
كيف يحلو من القوى التشفى	من ضعيف ألقى إليه القيادا

ويتجلى فى هذه القصيدة عنف السخرية المرة والألم المكبوت فيهاجم

المدعى العمومى والإنجليز ، وقال مخاطبا المدعى العمومى فى القضية:

أيها المدعى العمومى مهلا	بعض هذا فقد بلغت المراد
قد ضمنا لك القضاء بمصر	وضمننا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر	عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا

ولما كان بطش الإنجليز ضد كل الأحرار قائما فقد كان يستعمل أسلوب الرمزية فى كتابته فهو يلعن الاستعمار الإنجليزى فى صورة الاستعمار الإيطالى لطرابلس ويحمله النكبات التى تحيق بمصر أو بالشرق. وهو فى قصيدة دنشواى لا يهاجم الإنجليز والمدعى العام فحسب بل ينتقد المصريين رغبة منه فى إنكاء نفوسهم ضد الاحتلال فيقرع لأمة تقريبا جراحا مؤلما لاستسلامها للأجانب فيقول:

لاجرى النيل فى نواحيك يا (مصر — ر) ولا جادك الحيا حيث جادا
 أنت أنبت ذلك النبت يا (مصر — ر) فأضحى عليك شوكا قتادا
 أنت أنبت ناعقا قام بالأمم — (س) فأدمى القلوب والأكبدا
 أية يا مدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
 أنت جلدنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وهذه القصيدة تعد من أروع أشعار حافظ ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التى أظهرت مدى ظلم الإنجليز ومبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال.

لقد فهم حافظ سياسة الانجليز الظالمة، فيعرض لحادثة دنشواى مرة أخرى فيقول:

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا	بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا	بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه	بين الشفاه وطعمه لا يعذب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا	هو خير ما يرجو العميد ويطلب

ثم يلين حافظ فى كلامه متوددا راجيا بقوله:

فاجعل شعارك رحمة ومودة إن القلوب مع المودة تكسب
وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتها ونم عنها تنم فالناس أمثال الحوادث قلب
لقد كان حافظ سريع الاستجابة لأحداث عصره يسجل كل ما يجرى فيه
من حوادث جسام، من الاحتلال، فكتب قصيدة يعبر فيها عن الشكوى من
الاحتلال البغيض فيقول:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وإن أصبح المصرى حرا منعما
ويستمر حافظ فى تجسيم الشكوى قائلا :

إذا أخصبت أرض وأجذب أهلها فلا أطلعت نبثا ولا جادها السما
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهما
ويختم شكواه بالتندر والسخرية والتهكم على المحتلين فيقول:
فلا تحسبوا فى وفرة المال لم تفر متاعا ولم تعصم من الفقر مغنما
فإن كثير المال والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

وبعد أن تم عزل المعتمد البريطانى كرومر وخروجه من مصر نرى
حافظ يكتب قصيدة يلومه على سياسته وسياسة بلاده متعرضا لما أحدثته
سياسة الإنجليز فى دنشواى:

ولولا أسى فى (دنشواى) ولوعة وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا وتصويرك الشرقى غرا مجردا

لذنبنا أسى يوم الوداع لأننا
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا
وأنتك أخصبت البلاد تعمدا
قضيت على أم اللغات، وإنه
ووافيت والقطران فى ظل راية
نرى فيك ذاك المصلح المتوددا
ولم تبق للتعليم (بالورد) معهدا
وأجذبت فى مصر العقول تعمدا
قضاء علينا أو سبيل إلى الردى
فما زلت بالسودان حتى تمردا

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته
وأودعت تقرير الوداع معغامزا
غمزت بها دين النبى ، وإننا
وحاولت إعطاء الغريب مكانة
ألم يكفنا إنا سلبنا ضياعنا
وزاحمنا فى العيش كل ممارس
وما الشركات السود فى كل بلدة
ولم تستقل حتى حجبت المؤيدا
رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
لنغضب إن أغضبت فى القبر أحمدا
تجر علينا الويل والذل سرمدا
على حين لم نبلى من الفطنة المدى
خبير وكنا جاهلين ورقدا
سوى شرك يلقى به من تصيدا

ويمضى كرومر ويأتى معتمد جديد هو الدون جورست وينتهز حافظ
الفرصة ليواجه المعتمد الجديد بالحقيقة والشكوى من المستشار الإنجليزى
دنلوب بالمعارف، وأخذ يعدد المطالب الوطنية والاجتماعية ويعبر عن
الشكوى من الاحتلال بقوله

أذيقونا الرجاء فقد ظمئنا
فما أنا واقف برسوم دار
ولا مستنزل هبة بمـدح
ولكنى وقفت أنوح نوحا
وأدفع عنهم بشبا يراع
بعهد المصلحين إلى الورود
أسائلها ولا كلف برود
ولا مستنجز حر الوعود
على قومى وأهتف بالنشيد
يصول بكل قافية شروود

وهو إذ يعرض هذه المطالب يغمز السياسة الإنجليزية القديمة ونقائصها
ويدعو إلى تمكين المصريين من إدارة شئون بلادهم .

أرى أحداًكم ملكوا علينا	بمصر موارد العيش الرغيد
وقد ضيقنا بهم وأبيك ذرعا	وضاق بحملهم ذرع البريد
أكل موظف منك قدير	على التشريع فى ظل العميد
فضع حدا لهم وانظر إلينا	إذا انصفنا نظر الودود

وهو فى هذه القصيدة عنيف منطلق تعود به الذاكرة إلى حادثة دنشواى
وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية فيتعرض لكرومر وما
أحدثته حادثة دنشواى من زيادة الوعى القومى لدى المصريين فيقول:

رمانا صاحب التقرير ظلما	بكفران العوارف والكنود
قتيل الشمس أورثنا حياة	وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت " كرومر " قد دام فينا	يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر أنا بعد أن	بمجلود ومقتول شهيد

ثم ينطلق مدويا يتمنى البعث المصرى الجديد بقوله:

لننزع هذه الأكفان عنا ونبعث فى العوالم من جديد

ويختتم قصيدته لافتا نظر المعتمد البريطانى جورست إلى أن المصريين
قد سئموا سياسة كرومر، وهم يرجون أن يكون عهده خيرا من عهد سلفه:

أجئت تحوطنا وترد عنا	وترفعنا إلى أوج الصعود
أم " اللورد " الذى انحى علينا	أتى فى ثوب معتمد جديد؟

وبعد أن فرض الإنجليز الرقابة على المطبوعات وأغلقوا الصحف
وملئت السجون بالأحرار ، لم يخفت صوت حافظ وانطلق يندد بهذا
الإرهاب فيقول:

إن البلية أن تباع وتشتري	"مصر" وما فيها وألا تنطقا
كانت تواسينا على أماننا	صحف إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوت الدمع فاستعصى بكت	عنا أسى حتى تغص وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما	نرمى بها وسوابقا يوم اللقا
ما لى أنوح على الصحافة جازعا	ماذا ألم بها وماذا أحدقا
قصوا حواشيها وظنوا أنهم	أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأثوا بحاذقهم يكيد لها بما	يثنى عزائمها فكانت أحدقا

ثم يتجه بعد ذلك بكل نفسه إلى الشباب المصريين يثير عواطفهم ويهيب
بهم ان ينطلقوا فى طريق المجد والحرية مع الحذر واليقظة والتربص
للفرص، فهو يدعوهم إلى الاتحاد وإلى العلم وهما سبيل الوصول إلى
الحرية وإلى الحياة الكريمة:

أو كلما قالوا تجمع شملهم	لعب الشقاق يجمعنا فنفترقا
فتدفقوا حججا وحوطوا نيلكم	فلكم أفاض عليكم وتدفقا
فتعلموا ، فالعلم مفتاح العلا	لم يبق بابا للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكم	إن القوى بكل أرض يتقى

ولا يزال حافظ على هذه الشاكلة ماضيا فى طريقه يحمس الشعب
ويشغل فيه جذوة الوطنية، وتواكب أشعار حافظ الأحداث التى تمر بها

البلاد ونتيجة لفجيرة مصر بوفاة الزعيم مصطفى كامل فى العاشر من فبراير ١٩٠٨ القى حافظ ابراهيم قصيدته الرائعة فى رثاء الفقيد ، فقال:

زين الشباب وزين طلاب العلا هل أنت بالمهج الحزينة دارى
أيا قبر هذا الضيف أمال أمة فبكر وهلل والى ضيفك جاثيا
عزيز علينا أن نرى فيك (مصطفى) شهيد العلا فى زهرة العمر داويا
أيا قبر لو انا فقدناه وحده لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شئ بفقده وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا وأين الحجا والرأى ؟ ويحك هاهيا
هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعور وساقه إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا
مدحتك لما كنت حيا فلم اجد وإنى أجيد اليوم فيك المراثيا
عليك، وألا ما لذا الحزن شاملا وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يرى لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياما حينما كنت ساهدا فأشهدتنا حزنا وأمسييت غافيا
شهيد العلا ، لا زال صوتك بيننا يرى كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا: هذا بناء أقمته فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أننى قضيت وإن الحى قد بات خاليا
يناشدنا بالله ألا تفرقوا وكونوا رجالا لا تسروا الأعاديا
فروحى من هذه المقام مطلة تشارفكم عنى وإن كنت باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإبنى أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا
أجل، أيها الداعى إلى الخير إننا على العهد مادمنّا فقم أنت هانيا

بناؤك محفوظ، وطيفك مائل وصوتك مسموع ، وإن كنت نائيا
عهدناك لا تبكى وتتكر أن يرى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البكاء وفى غد ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيا نيل إن لم تجر بعد وفاته دما أحمر لا كنت يا نيل جاريا
ويا (مصر) إن لم تحفظى ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ويا أهل مصر ان جهلتم مصابكم ثقوا ان نجم السعد قد غار هوايا
وعندما أعلن الإنجليز الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وقاموا بعزل
الخدوى عباس الثانى يتكلم حافظ عن لسان مصر وبلسانها مطالبا بالحرية
فاضحا سياسة الممالة والوعود فيقول مخاطبا المعتمد البريطانى:

ودع الوعود فإنها	فيما مضى كانت رواية
أضحت ربوع النيل سلطنة	وقد كانت ولايته
نرجو حياة حرة	مضمونة فى ظل راية
ونروم تعليما يكون	له من الفوضى وقاية
ونود ألا تسمعوا فينا	السعاية والوشاية

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ولم يستجب الإنجليز لمطالب
المصريين فى الاستقلال يثور المصريون لكرامتهم المهذرة فتقوم ثورة عام
١٩١٩ عقب اعتقال سعد زغلول وصحبه الذى كان بمثابة الشرارة التى
أشعلت النار فى وجه المحتلين ووحدت صفوف المصريين ضد الإنجليز ،
فيهب الشعب رجالا ونساء، فتشارك المرأة المصرية الرجال فى الثورة ،
وتعلن عن مساهمتها فيها، يقوم حافظ ابراهيم بايصال صوته إلى الناس،
فيحي مظاهرة السيدات بقصيدة رائعة مجد فيها شجاعتهن وحمل حملة

لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن كما بارك ثورة ١٩١٩ وندد
بهجوم الجنود الإنجليز المسلحين على المظاهرة التى اجتازت شوارع
القاهرة متجهة صوب بيت الأمة فقال:

خرج الغوانى يحتججن	ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تخذن من	سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب	يسطعن فى وسط الدجنة
وأخذن يجتزن الطريق	ودار (سعد) قصدهنه
يمشين فى كف الوقار	وقد أبن شعورهنه
وإذا بجيش مقبل	والخيل مطلقة الأعنه
وإذا الجنود سيوفهها	قد صوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنادق	والصوارم والأسنة
والخيل والفرسان قد	ضربت نطاقا حولهنه
والورد والريحان فى	ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيshan ساعات	تشيب لها الأجنة
فتضعع النسوان	والنسوان ليس لهن منه
ثم انهزمن مشتتات	الشملى نحو قصورهنه

وبتهكم حافظ فى سخرية مرة بالإنجليز، ويذكرهم بهزيمتهم أمام
الألمان، ويهنئهم بالانتصار على النساء فيقول:

فلبهنا الجيش الفخور	بنصره وبكسرهنه
فكأنما الألمان قد	لبسوا البراقع بينهنه

وأَتُوا (بهند نبرج) مختلفيا بمصر يقودهنه
فلذاك خافوا بأسهن واشفقوا من كيدهنه

لقد هزت ثورة ١٩١٩ حافظ ابراهيم وأثارت عواطفه هذا عنيفا حتى
ملكت عليه كل عواطفه. وتحولت أشعاره إلى قصيدة ثائرة تلعن الإنجليز
وتعلن كلمة مصر، وتخط سطور العزة المصرية الشائرة بحروف من
دمائها الزكية. فكتب قصيدة رائعة يتحدث بلسان مصر، ويتغنى بوطنه
وأمجاده ومآثره وحضارته القديمة. كما يتحدث على لسان مصر إلى بنينا
حيث تطلب إليهم رفع بنيانها على العلم والأخلاق. وأن يتواصلوا بالجد
والصبر فقال:

وارفعوا دولتى على العلم والأخلاق	فالعلم وحده ليس يجدى
وتواصلوا بالصبر، فالصبر إن فارق	قوما فما له من مسد
خلق الصبر وحده نصر القوم	وأغنى عن اختراع وعد
إن فى الغرب أعينا راصدات	كحلتها الأطماع فيكم بسهد
فانقوها بجنة من وئام	غير رث العرا وسعى وكد
واصفحوا عن هنات من كان منك	رب هاف هفا على غير عمد
إننا عند فجر ليل طويل	قد قطعناه بين سهد ووجد
غمرتنا سود الأهاويل فيه	والأمانى بين جزر ومد
وتجلى ضياؤه بعهد لآى	وهو رمز لعهدى المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا	فالمعالى مخطوبة للمجد

وتضطر بريطانيا إلى إعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من
طرف واحد وتصبح مصر دولة مستقلة ذات سيادة عدا التحفظات الأربعة

التي لم يرض عنها سعد وعارضها المصريون من ورائه يقف حافظ حائرا
بين النظرات الحزبية والمواقف المتضاربة فيقول:

ما لى أرى الأكمام لا تفتح	والروض لا يذكو ولا ينفج
والطير لا تهلو بتنويمها	فى ملكها الواسع أو تصدح
والنيل لا ترقص أمواجه	فرحى ولا يجرى بها الأبطح
والشمس لا تشرق وضاءة	تجلو هموم الصدر أو تتزح
والبدر لا يبدو على ثغره	من بسمات اليمين ما يشرح
والنجم لا يزهر فى أفقه	كأنه فى غمرة يسبح
ألم يجنّها نبأ جاعنا	بأن مصرا حرة تمرح؟
أصبحت لا أدرى على خبرة	أجدت الأيام أم تمرح؟
أموقف للجذ نجتازه	أم ذاك للأهى بنا مسرح؟
ألمح لاستقلنا لمعة	فى جالك الشك فأستروح
وتطمس الظلمة آثارها	فأنتهى أنكر ما ألمح
قد حارت الأفهام فى أمرهم	إن لمحو بالقصد أو صرحوا
فقائل لا تعجلوا إنكم	مكانكم بالأمس لم تبرحوا
وقائل أوسع بها خطوة	وراءها الغاية والمطمح
وقائل أسرف فى قوله :	هذا هو استقلالكم فافرحوا
إن تسألوا العقل يقل عاهدوا	واستوثقوا فى عهدكم تربحوا
وأسسوا دارا لنوابكم	للراى فيها والحجا أفسحوا
ولتذكر الأمة ميثاقها	ألا ترى عزتها تخرج
وتتخب صفوة أبنائها	فمنهم المخلص والمصلح

وليتق الله أولو أمرها
أو تسألوا القلب يقل حاذروا
إني أرى قيذا فلا تسلموا
إن هياؤه من حرير لكم
حاتم- والصبر له غاية
حاتم - والأموال مشفوهة
حاتم يمضى أمرنا غيرنا
أساء بعض الناس فى بعضهم
فانتهزت أعداؤنا نهزة
فالراى كل الراى ان تجمعوا
وكل من يطمع فى صدعكم
أخشى إذا استكثرتم بينكم
فلتقصدا ما اسطعتم فيهم

أن يسكنوا الأصوات أو يفرحوا
وصابروا أعداءكم تفلحوا
أيديكم فالقيد لا يسجح
فهو على لين به أفدح
لغيرنا من بئرا نمئح؟
نمنح إلا (مصر) ما نمئح؟
وذاك بالأحرار لا يملح؟
ظنا وقد أمسوا وقد أصبحوا
فيما وما كانت لهم تسنح
فإنما إجماعكم أرجح
فإنه فى صخرة ينطح
من قادة الآراء أن تفضحوا
فإنما فى القلة المنجح

فحافظ هنا يصف موقف المصريين من هذا التصريح عند صدوره.
واستطاع أن يقف موقف المحايد من الأحزاب، فهو لم يقف جهارا مع سعد
زغلول، ولكنه أخذ يعرض الآراء منسوبة إلى أصحابها حتى لا يوصف
بالانحياز لطرف دون آخر، ومع ذلك ففي قصيدته التى رثى بها عبد
الخالق ثروت نجده يبين رأيه فى تصريح ٢٨ فبراير ويشيد بدور ثروت
وحصوله على التصريح ويلتمس له العذر فى عدم تمكنه من الحصول
على الاستقلال الكامل فقول:

وأتى بأقصى ما ينال مفاوض يسعى بغير كتائب وحراب

واسئل من أشدّاق آساد الشرى علما عضضن عليه بالأنياب

إن فاته بعض الأمانى فاذكروا أنا أمام محنكـين صلاب

رجل يفاوض وحده عن أمة إن لم يفز فوزا فليس بعاب

وبعد تصريح ٢٨ فبراير الذى تضمن إنهاء الحماية البريطانية

والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة محدودة يشعر حافظ ابراهيم

بالتفاؤل والغبطة، ويستقبل هذا العهد الجديد بقصيدة يقول فيها:

أشرق فديتك مشارق الإصباح وأمط لثامك عن نهار ضاحى

بوركت يا يوم الخلاص، ولا ونت عنك السعود بغدوة ورواح

بالله كن يمنا وكن بشرى لنا فى رد مغترب وفك سراح

وحافظ فى سعادته بعيد الاستقلال وفرحه به يرى من واجبه أن يسوق

التهنئة إلى مصر :

فاليوم قرى يا كنانة واهدئى حرم الكنانة لم يكن بمباح

من ذا يغير على الأسود بغابها أو من يعود بمسبح التمساح

ويعرب حافظ عن أمله فى استقلال السودان فيشيد بوحدة وادى النيل

فيقول:

للنيل مجد فى الزمان مؤثـل من عهد (آمون) وعهد (فتاح)

فـسل العصور به وسل آثاره فى (مصر) كم شهدت من السياح

وبعد ذلك ينادى بوحدة مصر والسودان فيقول:

يا صاحب القطرين غير مدافع ما مثل ساحك فى العلا من ساح
لك مصر والسودان والنهر الذى يختال بين ربا وبين بطاح

ثم يعبر عن إيمانه بالحكم النيابى وإعلان الدستور الذى كان أملا
يداعب الأمة وأصبح حقيقة بعد أن تألفت لجنة الدستور وتلاحقت
المؤامرات والتدابير للعبث به وتأخير صدوره فيقول:

البرلمان تهيات أسبابه لم يبق من سبب سوى المفتاح
هو فى يديك وديعة لرعية تنشى بالسنة عليك فصاح

كما يردد حافظ أهمية مبدأ وحدة وادى النيل مناديا بأن النيل لأهله:
النيل منبعه لنا ومصبه ما إن له عن أرضها تحويل
وثقت بك الثقة التى لم ينفرج للريب فيها والشكوك سبيل

ويحاول حافظ أن يقف على الحياد أمام حزب الوفد برياسة سعد
زغلول، وحزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن. حتى يتولى الحكم
اسماعيل صدقى ويحكم مصر بالحديد والنار. ويسانده فى استبداده الإنجليز
الذين يزعمون أنهم يقفون على الحياد، وهم فى الحقيقة قد جعلوا منه
دكتاتورا يتحكم فى رقاب المصريين، فيقوم بالغاء دستور ١٩٢٣،
واستبداله بدستور ١٩٣٠ فينظم حافظ قصيدة يندد فيها بالإنجليز وحيادهم:

قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة فى حماه يضام
قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام؟

سفتك مودتتا لكم وبدالنا	أن الحياء على الخصام لثام
إن المراحل شرها لا يتقى	حتى ينفس كربهن صمام
لم يبق فينا من يمني نفسه	بودادكم فودادك أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا	نشقى بكم فى أرضنا ونضام؟
إنا جمعنا للجهاد صفوفنا	سنموت أو نحيا ونحن كرام

ولما ازداد بطش صدقى وحكومته بالبلاد هاجم حافظ سياسته وانطلق فإذا به مارد جبار، يخرج من قمقه متوعدا صدقى بسوء المصير وكأنما تجسمت آلام الشعب كلها فى فؤاده ، فتحول شعره إلى أسهم يقذف بها صدقى وأعوانه، كما بدأ يستحث النفوس لعودة دستور ١٩٢٣ مبلورا فى شعره آمال أمته. وبجانب اهتمام حافظ بقضايا وطنه مصر فقد كان فى كثير من الأحيان يدافع عن الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، وعن علاقة الشوام بمصر ويجعل حافظ أساس الدعوة إلى الوحدة أساسا حضاريا ثقافيا متمثلا فى الأمنى والآمال. ولا يقصره على الوحدة الدينية أو الجنسية "فالوحدة فى نظره تضم الشرقيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم فهى (شرقية) بعيدة المدى فيتوجه إلى مطران الشام قائلا:

"مسرة" الشام ! إنا	إخوانكم ما حيننا
ثقفوا فإننا وثقنا	بكم وجئنا قطينا
إنا نرى فيك "عيسى"	يدعو إلى الخير فينا
قربت بين قلوب	قد أوشكت أن تبينا
فأنت فخر النصارى	وصاحب المسلمينا

ونجد هذا التأكيد فى المساواة بين الأديان والتسامح فيما بينها فى قصائده المختلفة كقوله فى قصيدته التى يمدح فيها السلطان عبد الحميد:
يرعى لموسى والمسيح واحمد حق الولاء وحرمة الأديان
فخذوا الموثق والعهود على هدى التوراة والانجيل والفرقان
وقوله فى قصيدة أخرى:

تحالف فى ظل الهلال إمامه وحاخامه بعد الخلاف وراهبه
وإن كان حافظ قد وسع دائرة الوحدة متجاوزا عن الأسس الدينية والجنسية، فإنه قد أسرف إسرافا بعيدا فى مدى هذه الوحدة. وذلك حين حاول أن يضم فى هذه الوحدة الشرق الأقصى إلى جانب المشرق العربى. فقد جرى فى شعره ذكر الصين واليابان فى أكثر من قصيدة. وقد تمنى فى مواضع مختلفة من شعره أن ينتظم الشرق الأقصى فى وحدة وثيقة مع الشرق العربى ومن ذلك قوله:

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطمع الغرب فيه غير وسان
تجرى المودة فى أعراقه طلقا كجربة الماء فى أثناء أفغان
لا فرق بين بوذى يعيش به ومسلم ويهودى ونصرانى

وعندما قامت الحرب بين روسيا واليابان عام ١٩٠٦ نجد حافظ يقف بجانب اليابان، لأنها دولة شرقية ناهضة، ولأنها تحارب روسيا العدو التقليدى لتركيا. ولقد أثارت هذه الحرب عواطف حافظ الشعرية فنظم قصيدته المشهورة التى مطلعها:

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى

وفيهما يمدح إمبراطور اليابان موضحاً وطنية الشعب الياباني وفهمه
الناضج للوطنية وعزمه على محاربة أعداء بلاده فيقول:
هكذا " الميكاد " قد علمنا أن نرى الأوطان أما وأبا

وهو إذ يعجب كيف تمكنت اليابان الدولة الشرقية الصاعدة من أن
تصبح في مصاف الدول الغربية المتحضرة يرد هذا إلى همة الامبراطور
الياباني فيقول:

مالك يكفيك منه أنه أنهض الشرق فهز المغرباً

ويستشعر في انتصار اليابان على روسيا عزة الشرقيين السليبة التي
أعادها لهم أصحاب الجنس الأصفر من اليابانيين:

تسوعنا الحرب وإن أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرقي حين إذا ما ذكر الأحياء لا يذكر
حتى أعاد " الصفر " أيامه فانتصف الأسود والأسمر

وعلى كل حال فإن الشرق العربي شعر بهزة وطنية بانتصار اليابان
لانتسابها إلى الأمم الشرقية الناهضة، وكان يتخذ من هذا دعامة حضارية
يتمنى أن يرى الشرق العربي كله يذخر بأمثلتها ، فهو دائماً ينعى عليه
تأخره ويهيب به أن يسترد مجده وعظمته.

ونستطيع أن نقول إن دعوة حافظ إلى الجامعة الشرقية هي دعوة عملية
ببناء أكثر منها دعوة قائمة على بعث المجد الغابر وترديد النغمات الجوفاء
بالمجد الخالد.

ونراه يتمنى أن يلحق الشرق بالغرب فيقول:

طبائع العمران	وسوف تقضى عليهم
ويستوى الحاققان	فيصبح الشرق غربا

وهو لا يزال يرسم للشرق المنهج القويم للنهوض كما كان يفعل مع
أبناء وطنه مصر في صراحة وجراة. دون أن يكون متعصبا لشرقيته
تعصبا أعمى، ولكنه تعصب واع، وهذا نتيجة إيمانه بالتطور الاجتماعى
وما تقضى به طبائع العمران.

فالدعوة الشرقية عند حافظ كان أساسها العمل الجدى فى سبيل الرقى
حتى يصل الشرق إلى مدنية الغرب فى العلم والاختراع، وحول ذلك يقول:

تمشى الشعوب لقصدها	قدما وشعب النيل آخر
كم فى الكنانة من فتى	ندب وكم فى الشام قابر
هذا يطير مع الخيال	وذاك يرتجل النواير
جهلوا الحياة وما الحياة	لغير كداح معامر
يجتاب أجواز القفار	ويمتطى متن الزواجر

ويهمنا أن نلاحظ أمرا هاما، وهو أن حافظا لم تبعث به وبعبافته القومية
هذه الوحدة الشرقية المتسعة ولا تلك الوحدة العربية الضيقة، إذ أنه لا زال

يشيد بمصر وهذا طبيعى لأنه جعل مصر معقد الأمانى القومية العربية
وأنها ذات المكانة الممتازة فى قلوب العرب. فكم صرح أنها زعيمة الشرق
وكم عبر على لسانها بهذه الزعامة فى قصيدة بعنوان (مصر فوق الجميع)
أنشدتها كوكب الشرق ام كلثوم:

وقف الخلق ينظرون جميعا	كيف أبنى قواعد المجد وحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق	ودراته فرائد عقدى
أنا إن قدر الإله مماتى	لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رمانى رام وراح سليما	من قديم عناية الله جندى

فرغم مصرية حافظ الواضحة فإنه لم يقتصر على مصريته
المحدودة، وإنما كان يرى الإخاء القائم بين الشعوب العربية بوجوداته
ويعتقه بإيمانه.

وعبر عن هذا الشعور فى مواضع عدة لعل من أقواها ما جاء فى
قصيدته التى حيا فيها الشام فى حفل تكريمه:

لى موطن فى ربوع النيل أعظمه	ولى هنافى حما كم موطن ثانى
بنى رأيت على أهرامها حللا	من الجلال أراها فوق "لبنان"

ولا يجد فى أدباء العروبة من البلدان المختلفة إلا أخوة للمصريين فى
ربوع النيل:

كم فى نواحى ربوع النيل من طرف (الليازجى) و(صروف) و (زيدان)
وكم لأحيائهم فى الصحف من أثر له (المقطم) و (الأهرام) ركنان

وحافظ يعد بهذه القصيدة إماما لدعاة القومية العربية بمفهومها الحديث،
ثم هو يرى فى تفرق الوطن العربى وتمزقه قضاء تاما على ما نتمناه من
وحدة تجمع شملنا فيحذر عاقبة الشقاق:

إن دام ما نحن فيه من مدابرة وفتنة بين أجناس وأديان
رأيت رأى (المعرى) حين أرهقه محال بالناس من بغى وعدوان
لا تطهر الأرض من رجس ومن درن حتى يعاودها (نوح) بطوفان
فحافظ قد خرج عن نطاق قومية مصرية ضيقة إلى رحاب قومية
عربية فسيحة تضم أبناء شعب واحد، بل بين أفراد أسرة واحدة، فقد صور
حافظ هذا المعنى فى قصيدته التى أنشدها فى حفل اقيم لتكريم بعض
السوريين فى فندق شبرد سنة ١٩٠٨ وافتتحها بهذا المطلع البارع
الصادق:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافق يجب
وهو يؤكد أن الوطن العربى جسد واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له
سائر الجسد بالسهر والحمى:

إذا ألمت بوادى النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
وإن دعانى ثرى الأهرام ذو ألم أجابه فى ذرا لبنان منتحب
كما يقول فى قصيدة أخرى:

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بنيتها سادة نجب

ولما أحس حافظ برغبة بعض المغرضين إلى هجر اللغة العربية الفصحى واستبدال العامية بها . وتزعم هذه الدعوة للعامية رجال أمثال شبلى شميل ووليم ويلكوكس وغيره من بعض النفعيين الذين عاونوهم وكادت دعوتهم تتجح لولا جهاد حماة اللغة وعلى رأسهم حافظ ابراهيم الذى كان شديد التعلق باللغة الفصحى ومن أكبر أنصارها، فدافع عن العربية الفصحى بروح لا يتخللها الملل، وكان له اليد الطولى فى إيقاظ رأى العام ، وكانت أفكاره امتدادا لما نادى به الأفغانى وعبد الله النديم بالاهتمام باللغة العربية فبين محاسن اللغة العربية وأظهر مزاياها ودعا إلى انهاضها بقوله:

أيطر بكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوادى فى ربيع حياتى
ويستمر حافظ فى هذه القصيدة مشيرا إلى ثراء اللغة العربية رغم ما يرميها أبناؤها به من القصور عن استيعاب الحضارة ومظاهرها وأدواتها. ويمضى فى تقرّيع أهلها ولوم أبنائها الذين زهدوا فيها والقصيدة كلها تكل دلالة قوية على اعتبار حافظ للغة العربية انها أداة الوحدة العربية الفعالة وعروتها الوثقى لأن انقطاع الصلة بيننا وبين هذه اللغة اشبه بتجريد المصريين من الذاكرة.

هذا هو حافظ الشاعر صاحب النزعات الوطنية والقومية والمنصف للحقائق التاريخية والذى كان فى شعره أمثلة متعددة للدفاع عن مصر والشرق بأجمعه، كما كان معينا لا ينضب من الكفاح الوطنى، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه مما جعل قصائده أشبه بالأغانى والتغريد.